حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٦﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٧﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٨﴾

شرح الكلمات:

يجأرون: جَأَرَ الداعي جَأْرًا: رفَع صوتَه بالدعاء. وجَأَرَ إلى الله بدعاء: ضَجَّ وتضرَّعَ واستغاثَ (الأقرب).

سامرًا: اسمُ فاعل مِن سَمَرَ فلان أي لم يَنَمْ وتحدَّثَ ليلاً (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الذين لا يحققون المشيئة الإلهية ينالون في بعض الأحيان الثروات، ولكنها لا يمكن أن تنقذهم من عذاب الله تعالى. إنهم يظلّون مغرورين بثرواتهم حتى يفاجئهم العذاب، فيبكون ويصرخون مستغيثين، فنقول لهم عندها لا فائدة الآن من البكاء. كيف يمكن أن نساعدكم اليوم وقد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم لا تبالون بها، بل كنتم تولّون عنها الأدبار مستكبرين و لم تتدبروا فيها قط. وكنتم تجعلون تعليمنا عرضة للطعن في مجالسكم ليلاً، فرأيتم نتيجة ذلك، حيث أرداكم كبركم و لم تنفعكم ثرواتكم شيئًا. أي أنه حين يحل العذاب من عند الله تعالى فلا ينفع البكاء والعويل لأن عذابه ينـــزل بعد إقامة الحجة، ولا فائدة من البكاء على نـــزول العذاب بعد إقامة الحجة.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٧٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧١﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

ذكر: الذِّكر: التلفظُ بالشيء وإحضارُه في الذهن بحيث لا يغيب عنه؛ الصيتُ؛ الثناءُ؛ الشرفُ؛ الصلاةُ لله تعالى والدعاءُ؛ الكتابُ فيه تفصيلُ الدِّين ووضعُ الملل؛ والذكرُ من الرجال: القويُّ الشجاعُ الأَبيّ؛ والذكرُ من المطر: الوابلُ الشديد؛ والذكر من القول: الصلبُ المتينُ (الأقرب).

التفسير: أي ألم يعرف خصوم محمد ﷺ رسولهم حتى رفضوه.. بمعنى أنه لمن الغريب أنهم عاشروا محمدًا أربعين سنة وشاهدوا أخلاقه وسيرته، واعترفوا اعتراف شاهد عيان أنه إنسان صادق، ولكن هذا الإنسان الصادق عندما أخبرهم أنه مبعوث لهدايتهم من عند الله تعالى انبروا لمعارضته. لو أن شخصًا أجنبيًا قال لهم هذا الكلام لعُدّوا من المعذورين إذ يقال إنهم لم يشهدوا حياته فظنّوه مفتريًا. ولكن كيف يحق لأهل مكة أن يرموا محمدًا ﷺ بالافتراء وقد كانت حياته كلها كتابًا مفتوحًا أمامهم؟ لقد كانوا معترفين بصدقه ﷺ لدرجة أنه لما ادعى النبوة اجتمعوا للتشاور وتداول الرأي، وقالوا: سيأتي الناس هنا من الخارج في أيام الحج وسيسألوننا عن دعواه فماذا نجيبهم؟ فقال أحدهم: لو سألنا عنه أحد سنقول له على الفور إنه كاذب. فقام النضر بن الحارث وكان من ألدّ أعدائه ﷺ وقال في حماس شديد: كيف تقولون ذلك وقد وُلد محمد بين ظهرانيكم وترعرعَ وشبَّ،

وتعلمون أنه مرضيّ الأخلاق. لقد كان أصدقَكم حديثًا، وأعظمَكم أمانةً. لقد عاش بينكم معروفًا بالصلاح والأمانة، حتى إذا رأيتم في صُدُغَيه الشيبَ، وخرج من شبابه ودخل في أيام كهولته، وجاءكم بما جاءكم به من التعليم، قلتم إنه كاذب. والله إنه ليس بكاذب. ولو قلتم هذا الكلام الهراء للناس فلن يصدقّكم أحد*. (الشفاء للقاضي عياض، الجزء الأول ص ٥١).

وكم كان أبو جهل يعادي النبي ﷺ، ولكنه هو الآخر قال لـــه ﷺ في إحدى المرات: "إنا لا نكذّبك ولكن نكذّب بما جئتَ به" (الترمذي: كتاب التفسير، سورة الأنعام). وهذا يعني أن قلب هذا العدو اللدود السيئ الباطن أيضًا لم يجرؤ على أن يسمي النبي ﷺ كاذبًا. فكأنه عندما نسب الكذب إلى النبي ﷺ أنّبه ضميره وارتعد قلبه لائمًا إياه: ما هذه الفعلة الشنيعة التي ترتكبها. ولكنه احتج وقال إني لا أكذب محمدًا، وإنما أكذب ما جاء به. والحق أن عذره هذا مصداق لقولهم: "العذر أقبحُ من الذنب". على أية حال، إن هذا يكشف لنا مدى الأثر الكبير الذي تركه صدقُ النبي ﷺ وسداده على قلوب ألد أعدائه.

وكان أمية بن الخلف من أشد خصومه ﷺ، ولكنه لم يملك نفسه ذات مرة فقال "والله ما يكذب محمد إذا حدّث" (البخاري: كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام). يقال: "إن السحر ما يتكلم بنفسه". فترى كم كان سحر الأخلاق النبوية قويًّا حيث جعل أعداءه أيضًا يعترفون بصدقه وأمانته. وهذا ما يؤكده الله تعالى هنا فيقول ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾.. أي ألا يرون إلى حياة محمد الطاهرة المنـــزهة عن كل عيب؟ بمعنى أنه كان من المفروض أن يعرفوا فورًا أنه صادق، ولا يندفعوا إلى تكذيبه. ولكن قد صارت عيونهم في غطاء وهم يبصرون، وتكلموا عنه ﷺ كالغرباء وهم يعرفون.

---

* نص ما ورد في المصدر المشار إليه هو: "قد كان محمد فيكم غلامًا حدثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقَكم حديثًا، وأعظمَكم أمانةً، حتى إذا رأيتم في صُدُغَيه الشيبَ، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحرٌ. والله إنه ليس بساحر." *(المترجم)*

ثم يقول الله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ .. هل يقولون أن هذا الإنسان على صلة بالجنّ. كلا، إنما الأمر الواقع أنه قد جاءهم بتعليم يظنون أن العمل به صعب فينظرون إليه كارهين. ذلك لأن العمل بهذا التعليم سيقضي على سيادتهم ومناصبهم، وهذا ما لا يستطيعون قبوله. وهذا يعني أن المعارضين لما وجدوا من المستحيل أن يتهموا محمدًا رسول الله ﷺ بالكذب، غيّروا استراتيجيتهم فأخذوا يقولون إنه لا يكذب، ولكنه على صلة بالجن الذين يعلّمونه هذا الكلام.

يعترض هنا المسيحيون ويقولون: ما هذا الكلام الهراء الذي يدل على الغباء والوهم؟ ولكن هؤلاء لا يفكرون أن هذا الوهم هو وهم الكافرين، ومتى يُعَدُّ الكفار من أهل العقل والدهاء؟ ثم إن الإنجيل نفسه يقول إن خصوم المسيح عليه السلام قالوا عنه: "به شيطانٌ وهو يهذي" (يوحنا ١٠: ٢٠). فما دام هذا الكلام نفسه قد قيل في زمن المسيح عليه السلام و لم يستغربوا منه، فلماذا يستغربون منه إذا ما قيل في زمن الرسول ﷺ؟

على كل حال، إن الله تعالى قد رد على اعتراض الكفار بأن به جنّة، بقوله تعالى ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بينما بين بقوله تعالى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ السبب وراء إنكارهم. فرَدَّ على اعتراضهم وقال: متى قدّم الذين لهم صلة بالجن تعليمًا للناس فيه حلول لكافة مشاكلهم الأخلاقية والروحانية والاقتصادية والسياسية، وضمان لهم بالترقيات العالية إذا ما عملوا به. وإذا كان هذا لم يحدث في الماضي قط فكيف يمكن أن يكون محمد على صلة بالجن مع أنه يعرض على الناس هذا التعليم العظيم؟ أما قوله تعالى ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ فبين فيه أنهم لا يرفضون ما يقوله محمد لعيبٍ فيه، وإنما السبب الحقيقي أنهم لا يريدون اتباع الحق والعمل به. ذلك لأنهم لو آمنوا بمحمد لتعرضوا للتعذيب ولسمعوا أفظع السباب، واضطروا للتضحية بالنفس والنفيس وترك الوطن والتخلي عن السيادة. وهو أمر لا يحبونه أبدًا، فلذا يبحثون عن شتى الحجج والمبررات لمعارضة محمد ﷺ. فتارة يقولون إنه كذاب، ويزعمون تارة أخرى أنه على صلة بالجن، ويريدون أن لا

ينكشف الحق على الدنيا؛ مع أن الحق لو جُعل تابعًا لأهواء الناس لفسدت السماوات والأرض.. أي حُرم الناس من التعلق بالله تعالى كما لم تتيسر لهم أي هداية في مجال التعلق بالعباد، وبالتالي عمَّ الظلام والضلال كلّ مكان في العالم.

ثم يقول الله تعالى ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.. أي أنّ أسباب عزهم وشرفهم تكمن في العمل بتعليم القرآن، فالواقع أنهم لا يُعرضون عن القرآن وإنما يُعرضون عن رقيهم وازدهارهم.

لقد أشار الله تعالى باعتبار القرآن "ذِكرًا" في هذه الآية إلى أن هذا الكتاب ليس متسمًا بالشرف والعظمة المتناهية من حيث كمالاته الذاتية فحسب، بل إن الذين يعملون به بصدق القلب يصبحون معززين ومكرمين في الدنيا. وهذا ما حدث بالفعل، حيث بُعث محمد رسول الله ﷺ في أمة غير متحضرة جاهلة تمامًا بأصول التهذيب والتحضر. لقد وجُدت فيها كل العيوب والمساوئ. كانوا مشهورين بالسرقة والسطو وقطع الطرق، مشغوفين بالفسق والفجور. كان قتل شخص أمرًا عاديًّا عندهم. كانوا يتزوجون أمهاتهم. كانوا نشوانين بالخمر كل حين. كانوا يئدون البنات، ويعاملون النساء كأنهن حيوانات. كانوا يتحاربون على أتفه الأمور وكانت حروبهم هذه تستمر في بعض الأحيان سنوات وسنوات. باختصار لم يكن لهم فضل على غيرهم خلقيًا ولا سياسيًا وحضاريًا، كما لم تكن عندهم رغبة في الدين. ولكنهم صاروا أساتذة العالم في أيام معدودات بفضل اتّباع محمد رسول الله ﷺ وببركة القرآن الكريم، ووضعوا الأساس لحضارة جديدة. اصطدمت بهم إمبراطوريات كسرى وقيصر فتمزقت إربًا. وحيثما ذهبوا أجروا من العلوم والمعارف أنهارًا. فقبل بعثة النبي ﷺ لم يكن للعرب أية معرفة بعلم التاريخ والصرف والنحو والفقه وأصول الفقه، ولم يكونوا يعرفون ما هو علم المعاني وعلم البيان، وما هو علم البلاغة أو علم الاقتصاد أو علم الكلام. ولكن بعد نـــزول القرآن الكريم قد نشر الله تعالى في العالم كل هذه العلوم بواسطة هؤلاء البدو ورعاة الإبل. كما تعلمت أوروبا من المسلمين أنفسهم فن العمارة ونسج السجاد والزخرفة المعمارية. بل إن فن الموسيقى التي قد أصبح العالم "المتحضر" كله مشغوفًا بها قد

اخترعها المسلمون أنفسهم، وهي حقيقة يعترف بها الكُتّاب الأوروبيون أنفسهم. ونفس الحال بالنسبة للفلسفة التي يظن الناس أنها من اختراع الأوروبيين، فقد أعلن بعض فلاسفتهم أنه زعم باطل، إذ إنهم مدينون للمسلمين بهذا الصدد أيضًا. قصارى القول إن القرآن الكريم قد منح المسلمين من العز والشرف ما جعلهم معلمين وأساتذة للعالم.

في عهد سيدنا عمر ﷺ لما تولى العرشَ "يزدجردُ" حفيدُ "خسرو" وأخذ في التجهيزات الحربية على نطاق واسع في العراق ضد المسلمين، وجّه إليه عمر ﷺ جيشًا تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ﷺ. فاختار سعد منطقة القادسية للمعركة، وبعث بخريطتها إلى عمر. فأُعجب عمر بهذا الاختيار، ولكنه كتب إلى سعد أن عليه قبل الخوض في الحرب ضد الملك الإيراني أن يبعث إليه وفدًا يدعوه إلى الإسلام. فبعث وفدًا لمقابلة الملك. ولما وصل إليه الوفد قال لترجمانه قل لهؤلاء: لماذا جاؤوا هنا، ولماذا يعيثون في أرضنا فسادًا؟ فقام رئيس الوفد نعمان بن مقرن وقال في جوابه: إن الله تعالى قد بعث فينا نبيًا اسمه محمد. وقد أمرنا بنشر الإسلام ودعوة الناس كلهم إلى الانخراط في هذا الدين. وما جئناك إلا لندعوك إلى الإسلام. فغضب الملك يزدجرد من جوابه وقال لـــه: إنكم أمة همجية تأكل الميتة. فإذا كان الجوع قد دفعكم إلى الهجوم علينا فإني معطيكم من الأموال ما يضمن لكم الأكل والشرب والملبس مطمئنين. فخذوا مني هذه الأموال وارجعوا إلى بلادكم، ولا تهلكوا أنفسكم بالحرب ضدنا. فلما انتهى الملك من كلامه قام المغيرة بن زرارة من قِبل الوفد المسلم وقال: إن ما قلت فينا حق وصدق. لا شك أننا كنا أمة وحشية تأكل الميتة والثعابين والعقارب والجراد والسحالي. ولكن الله تعالى قد تفضل علينا برحمته وبعث فينا رسولاً لهدايتنا، فآمنّا به وعملنا بأوامره، فحدث في أنفسنا انقلاب عظيم، و لم تعد فينا تلك المساوئ والنقائص التي أشرت إليها. واعلم أننا لن نتأثر من أي إغراء. لقد بدأت الحرب بينك وبيننا، وسيُحسم الأمر الآن في ساحة القتال، ولن تستطيع أن تثنينا عن عزائمنا بإغرائنا بالمال ومتاع الدنيا. فاستشاط الملكُ غضبًا وقال لمن حوله: اذهبوا وأحضِروا كيسًا من التراب. فلما أتوا بالتراب

دعا الملك رئيسَ الوفد المسلم وقال لـــه: لأنك رفضتَ ما عرضتُ عليك فلن أعطيك الآن إلا هذا الكيس من التراب. فانحنى الرئيس المسلم وحمل الكيس على ظهره. ثم خرج بسرعة من بلاط الملك وهو يهتف لزملائه بصوت عال: قد آتانا ملك الفرس اليوم أرض بلاده بيده. ثم ركبوا جيادهم مسرعين بشدة. فلما سمع الملك هتافهم ارتعدت فرائصه وقال لحاشيته اذهبوا بسرعة واستردوا منهم كيس التراب، فإنه من الشؤم الكبير أن أعطيهم تراب أرضي بيدي. ولكن المسلمين كانوا قد خرجوا بعيدًا على متون جيادهم. ثم في نهاية المطاف حصل ما قاله المسلمون حيث وقعت إيران كلها في قبضتهم (محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية الجزء الأول ص ٢٠٣-٢٠٩، ومقدمة ابن خلدون الجزء الثاني: أخبار القادسية ص ٩١-٩٤).

كيف حصل هذا الانقلاب العظيم في المسلمين؟ إنما سببه أن تعليم القرآن الكريم قد أحدث تغيرًا عظيمًا في أخلاقهم وعاداتهم، قاضيًا على حياتهم السفلية، صاعدًا بهم إلى مقام عال من السلوك القويم والخُلق العظيم.

ورد في التاريخ أن عمر ﷺ خرج للحج مرة، وتوقف في مكان في الطريق. كانت الشمس شديدة الحرّ وكان العرق يسيل منه، ولكنه ظل واقفًا هناك وقتًا طويلاً، ولم يجرؤ أحد من رفقائه على أن يسأله عن سبب وقوفه هناك في الشمس المحرقة. وبعد انقضاء وقت طويل تقدم الناس إلى صحابي كان صديقًا حميمًا لعمر وقالوا لـــه اسأل عمر عن سبب وقوفه هنا. فقال لعمر سيدي لماذا أنت واقف هنا والشمس محرقة والناس يعانون! فقال إنني واقف لأنني كنت ذات مرة أرعى الإبل هنا في صغري، فنمت بعض الوقت تحت شجرة هنا لشدة التعب، فجاء أبي فوجدني نائمًا فأخذ يضربني ويقول هل بعثتك مع الإبل لتتركها وشأنها وتنام. فاليوم لما مررت بهذا المكان قلت في نفسي كم هي رفيعة هذه المكانة التي منحني الله تعالى إياها ببركة تصديقي لمحمد رسول الله ﷺ حيث إن مئات الآلاف من الناس جاهزون لإراقة دمائهم من أجلي، مع أنني لست إلا ذلك الراعي الذي كان

يرعى الجمال في هذه البرية وحيدًا، والذي كان أبوه يضربه لأنه كان ينام في بعض الأحيان لشدة التعب.*

ثم انظروا إلى أبي بكر الذي كان تاجرًا عاديًا. ولولا بعثة النبي ﷺ في مكة لما كتب المؤرخون في تاريخ مكة عن أبي بكر إلا أنه كان واحدًا من التجار العرب الشرفاء. ولكن ببركة اتّباع محمد رسول الله ﷺ نال أبو بكر ذلك المقام السامي، حيث إن الدنيا كلها تبجله وتحترمه. لما اختاره المسلمون خليفة وقائدًا لهم عند وفاة النبي ﷺ، بلغ هذا الخبر أهلَ مكة. وكان والد أبو بكر، واسمه أبو قحافة، جالسًا مع القوم حين سمع أن الناس قد بايعوا على يد أبي بكر، فلم يصدّق الخبر بتاتًا، وقال لصاحب الخبر: من هو أبو بكر هذا؟ قال: ابنك. ثم أخذ يعدّد القبائل العربية ويقول لـــه إن هؤلاء أيضًا قد بايعوا على يد ابنك واختاروه بالإجماع خليفة وسيّدًا عليهم. فلم يملك أبو قحافة نفسه وقال "أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـــه وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله". وذلك برغم أنه كان مسلمًا من زمان. وإنما أعاد كلمة الشهادة وأقر برسالة النبي ﷺ ثانية لأنه حين صار ابنه خليفة انكشفت عليه الحقيقة تمامًا حيث أدرك أن هذا دليل عظيم على صدق الإسلام إذ لولا ذلك لما كان العرب ليجتمعوا كلهم على يد أبي بكر أبدًا.

باختصار، إن الإسلام قد رفع أتباعه من الثرى إلى الثريا، والتاريخ حافل بإنجازاتهم. ولا يسع أي إنسان ذي بصيرة أن ينكر أن القرآن قد منح أتباعه صيتًا خالدًا، وزادهم شرفًا على شرف. أما الذين لم يقبلوا رسالة القرآن الكريم فإنهم فقدوا عزتهم السابقة وسقطوا في الحضيض حتى لا يعرف الناس اليوم أسماءهم، وأما

* ورد في الطبقات الكبرى: عن يحيى ابن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال: "أقبلْنا مع عمر بن الخطّاب قافلين من مكة حتى إذا كنا بشعاب ضَجْنان وقَف الناسُ، فكان محمد يقول: مكانًا كثير الشجر والأشَب. قال فقال: لقد رأيتُني في هذا المكان وأنا في إبلٍ للخطّاب، وكان فظًّا غليظًا، أحتطبُ عليها مرة وأختبط عليها أخرى. ثم أصبحتُ اليوم يضرِب الناسُ بجَنباتي، ليس فوقي أحد." (الجزء الثالث ص ٢٠٢: عمر بن الخطاب) *(المترجم)*

الذين أسماؤهم معروفة بين الناس فلا يذكرهم أحد بخير، بل يذكرونهم بالسوء والذلة والهوان.

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾

شرح الكلمات:

خَرْجًا: الخَرْج: الخَراج (الأقرب).

التفسير: أي ما دمتَ لا تسأل هؤلاء أي شيء حتى يشق عليهم قبول تعليمك. لو كنت تطالبهم بشيء لنفسك لكان هناك مبرر لما يفعلون، ولكن الله تعالى قد حمل عنك كل أعبائك وهو الذي تكفل رزقك، وهذا هو الأفضل، فلم لا يفتحون عيونهم رغم رؤية هذه الآية العظيمة ولا يعترفون بصدقك. بمعنى أن أكبر عائق يصدّهم عن تصديقك إنما هو ظنهم أن محمدًا ربما يعيب آلهتهم لينال السيادة، ومع أنه لو كان هدفه من هذا الكفاح الوصول إلى السيادة لطالب بها أهلَ مكة ولو مرة واحدة على الأقل. وعلى النقيض إن أهل مكة أنفسهم قالوا لمحمد ﷺ أنه إذا كان يريد الحكم والسيادة فإنهم مستعدون ليختاروه سيدًا عليهم أجمعين، وإذا كان يريد المال فيعطونه من المال ما يجعله أكثر العرب ثراءً، وإذا كان يرغب في الزواج من امرأة جميلة فسيزوجونه بأجمل فتاة من أعز بيت؛ وكل ما يريدون منه في المقابل أن لا يعيب آلهتهم.

وفي إحدى المرات جاء رؤساء قريش أبا طالب وطالبوه أن يكف ابن أخيه عن أن يعيب آلهتهم، ولما بلّغ أبو طالب محمدًا ﷺ بمطالبهم وقال لـــه ارحمني ونفسك فإني لا أستطيع مقاومة القوم كلهم أجاب ﷺ: والله لو وضعوا الشمس في يميني

والقمر في يساري لما تركت الرسالة التي أمرني الله تعالى بتبليغها. (المواهب اللدنية الجزء الأول ص ٤٨، والطبري الجزء الثاني، ص ٤٠٧-٤١٠: ذكر الخبر عما كان من أمر نبي الله ﷺ، والسيرة النبوية لابن هشام الجزء الأول صفحة ٢٨٢: مباداة رسول الله ﷺ قومَه وما كان منهم، و صفحة ٣١٦: ما دار بين رسول الله ﷺ ورؤساء قريش)

كان بوسع أهل مكة أن يدركوا من هذه الواقعة أن محمدًا رسول الله ﷺ ما أراد لنفسه شيئًا، وإنما كان يطالبهم بما فيه إصلاحهم وخيرهم ورقيهم. ألم يكن من الأفضل لهم أن ينظروا إلى الآية الإلهية العظيمة بأنه ﷺ كان وحيدًا لا رفيق يؤازره، ولا زميل يؤيده، ولا معين يحميه من العدو، ولكن بمجرد أن انطلق الصوت الرباني من لسانه أحدث ارتعاشًا في قلوب الناس، فأخذت الملائكة تتنـــزل على ذوي الطبائع السعيدة، فرغبوا في الإسلام بكل إخلاص ومحبة، حتى بلغ عدد المؤمنين، الذين كانوا في أول الأمر يُعَدّون على الأصابع، مئاتٍ فآلافًا فمئات الآلاف، أما اليوم فقد بلغوا الملايين. لقد اجتمع حوله ﷺ فِتيةٌ يضحون بالنفس والنفيس، ودخل بين مريديه شيوخ ذوو حكمة وخبرة، وأخذ الشباب من عائلات ثرية عالية يضحون لأجله ﷺ بأرواحهم. وبدأ عامة الناس، وهم بمنـــزلة العمود الفقري للبلاد، يضربون أروع الأمثلة للتضحية والفداء مدافعين عنه من يمينه وشماله ﷺ. وجُمعت الثروات على قدمه، ووُضع زمام الحكم في قبضته. كل ذلك كان آية بينة أراها الله العلي القدير إياهم دليلاً على صدقه ﷺ. ومع ذلك لم يعرفه الذين كان حظهم سيئًا. لقد صاروا عميانًا وعندهم عيون، وصمًّا وعندهم آذان، و لم يفقهوا وعندهم قلوب.

ثم يقول الله تعالى إنه إذا كانت هذه الآية لا تكفي لفتح عيونهم فلم لا يفكرون ﴿إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وفي هذا مصلحتهم هم، ومع ذلك يتنكبون عن هذا الصراط ويتبعون طريقًا خاطئًا، ولن يؤدي ذلك إلا إلى خسرانهم وهلاكهم وهلاك قومهم، إذ من المحال أن ينجو قوم ينحرفون عن الصراط المستقيم.

إن هذه الآية تمثّل دليلاً بيّنًا على صدق النبي ﷺ وسداده بحيث كلما تدبر فيه الإنسان انكشف عليه صدق الإسلام وحقانيته أكثر فأكثر. إن الإسلام يعلن منذ ثلاثة عشر قرنًا أن الصراط المستقيم إنما هو ما يدعو إليه محمد رسول الله ﷺ، وأن الدنيا كلما سلكت طريقًا غيره هلكت حتمًا؛ وقد شهدت الوقائع والأحداث على صحة ما يدعيه الإسلام. فترى أن العديد من النظريات الدينية والسياسية والاقتصادية التي قدمتها أوروبا للعالم تتصادم مع الإسلام. وقد لقيت أوروبا بصدد كل هذه النظريات هزيمة نكراء، حيث اضطرت في نهاية المطاف للعودة إلى نفس الطريق الذي قدمه الإسلام.

فمثلاً إن التوحيد هو أكبر النظريات الدينية. إن المسيحيين لما حققوا الرقي أخذوا يقولون عن عيسى عليه السلام، الذي لم يكن إلا عبدًا من عباد الله تعالى وكان خاضعًا للحوائج البشرية بكل أنواعها، أنه إله وابن إله – والعياذ بالله – وشرعوا يخاصمون المسلمين بصدد هذه العقيدة. وكان هذا الهجوم من قبل أوروبا شديدًا لدرجة أن المسلمين أخذوا يصدقونهم في بعض الأمور، فقالوا إن المسيح لم يكن إلهًا، ولكنه كان يعلم بعض الغيب وكان يحيي الموتى وقد خلق بعض الحيوانات أيضًا. وهكذا عزوا إلى المسيح كثيرًا من صفات الله تعالى شيئًا فشيئًا، وتسببوا في قوة المسيحية. ولكن ماذا كانت النتيجة لهذا الاصطدام بين أوروبا والإسلام؟ لقد اصطدم المسيحيون بالإسلام ليجعلوه فريسة للمسيحية، فكانت النتيجة أن نفس أوروبا التي كانت تهاجم التوحيد، والتي كانت مُغرَمة بالتثليث، قد بدأت تعترف بلسانها بالتوحيد وترفض التثليث. لا أناقش هنا ما تقوله أوروبا كأمة، إن ما أركز عليه هو أنك لو سألت الفرد هناك هل تؤمن بأن المسيح إله لقال لك صراحة: إننا نؤمن بالتوحيد، وإنما نعني بقولنا أن المسيح ابن الله أنه كان إنسانًا صالحًا ومن المقربين عند الله تعالى. فإن أوروبا لما اصطدمت بالإسلام في قضية التوحيد هُزمت وصار الإسلام غالبًا. وأصحاب نظرية التثليث هم نفس أولئك القوم الذين اخترعوا المدافع والقطارات والطائرات وأثبتوا وجودهم للعالم، ولكنهم لما اصطدموا بالإسلام لم يجدوا بدًّا من الاعتراف بهزيمتهم.

ومن النظريات العملية قضية الطلاق الذي قدمه الإسلام، فضحك عليه الغرب سنين طويلة. إن المشاهير من رجال القانون في أوروبا قد استهزؤوا في كتبهم بحكم الطلاق الإسلامي وقالوا إنه لمن العار أن يترك المرء زوجته فتذهب لتعيش في بيت زوج آخر. أما الآن فمنذ ثلاثين سنة أخذوا في كل البلاد الأوروبية يسنّون قانون الطلاق، وهكذا أخذوا في دعم نفس القضية التي كانوا يعارضونها من قبل ساخرين.

ثم إن الإسلام لما عرض حكم الطلاق جعله مشروطًا بقيود وشروط عديدة تحمي حقوق المرأة. فضحك عليه كبار الفلاسفة ورجال القانون من أوروبا، وسوّدوا آلاف الصفحات معترضين على هذه الشروط زاعمين أن الإسلام يقضي بذلك على حرية الجنسين في مجال الحب ويقتل عواطفهما ويدمّر حياتهما. أما اليوم فقد كثر الطلاق في دول هؤلاء الأوروبيين المستهزئين بشكل سخيف. فقد قرأت مرة في جريدة (TIMES OF LONDON) خبرًا يقول: اشترك أحد عشر زوجًا في جنازة سيدة في أمريكا. فأخذتني الحيرة بقراءة هذا الخبر، وقلت كيف يكون لامرأة أحد عشر زوجًا. فلما قرأتُ الخبر كله عرفتُ أن تلك السيدة كانت قد تزوجت من ثمانية عشر رجلاً، وطلّقتْ سبعة عشر منهم. فكان سبعة من هؤلاء المطلقين قد توفوا، فاشترك الباقون منهم، البالغ عددهم أحد عشر، في جنازة زوجتهم السابقة احترامًا لها.

وكانت أسباب تطليقها لأزواجها أكثر غرابة وحيرة. فمن هذه الأسباب أن المرأة قالت للمحكمة إن زوجي لا يقبّلني عندما يدخل البيت، فقال القاضي: هذا ظلم عظيم منه لا يستحق بعده أن يبقى زوجًا لأي امرأة، وها إني أحكم بفصله عنك. ومن الأسباب التي ذكروها لطلاقها أيضًا أنها قالت للقاضي: لقد كتبت رواية، ولكني زوجي هذا يقول إنها رواية تافهة. فقال القاضي في حكمه: إنه قد ارتكب جريمة كبيرة بالتفوه بهذا الكلام، وليس أمامي الآن إلا أحكم بفصل الزوجين. وقد ذكروا في الخبر أسبابًا مضحكة أخرى.

هذا، وفي إنجلترا أيضًا جُعل الطلاق سهلاً بالتدريج. أما أمريكا فهي تصرخ اليوم بأن الطلاق قد أصبح رخيصًا وسهلاً لدرجة أنه قد دمّر البيوت. يرجع الزوج من مكتبه متعبًا متوتر الأعصاب، فيرفع صوته قليلاً خلال الحديث مع زوجته، فتخرج من البيت بسرعة، وعندما تُسأل أين تذهب تقول إنني ذاهبة إلى المحكمة لأني أريد الطلاق من زوجي هذا.

إذًا فإن أوروبا قد لقيت هزيمة نكراء على يد الإسلام عند اصطدامها معه في قضية الطلاق أيضًا. فإذا كان الفلاسفة الأوروبيون قادرين حقًّا على اختراع فلسفات عظيمة فكان من المفروض أن تكون فلسفتهم البسيطة هذه أفضل لأن الشيء البسيط أسهل صنعًا من الشيء العظيم؛ ولكن ليست خافية على العالم الهزيمة التي لقيتها أوروبا على يد الإسلام بصدد فلسفتها البسيطة هذه.

ثم خذوا الخمر مثلاً، فإن الإسلام قد نهى عن شربها، ولكنه أضاف وقال أيضًا إننا لا نقول إن الخمر شيء فاسد على الإطلاق. كلا، بل إن في الخمر والميسر بعض الفوائد أيضًا، ولكن أضرارهما أكثر من فوائدهما، لذلك نحرمهما عليكم (البقرة: ٢٢٠، والمائدة: ٩١). فعندما يعطي الأطباء الخمر لبعض المرضى كدواء، لا يلبث بعض أولئك الذين يجهلون أن الإسلام قد اعترف ببعض فوائد الخمر أيضًا، أن يقولوا لماذا حرّم الإسلام شيئًا نافعًا كالخمر؛ فقد رأينا أن نبض المريض يكون على وشك أن يتوقف تمامًا، فإذا سُقي جرعة من الخمر، تحرَّكَ نبضه ثانية واستعاد قوته من جديد. فالذين يعترضون بهذا الأسلوب نضع أمامهم القرآن ونقول لهم لقد اطلعت اليوم على فائدة الخمر هذه، ولكن كتابنا القرآن الكريم قد أخبرنا قبل ثلاثة عشر قرنًا من الزمان أن الخمر ليست ضارة فقط، بل فيها بعض المنافع للناس أيضًا، ولكن حيث إن أضرار الخمر أكثر من منافعها، وحيث إن من أكبر عيوبها أن المرء إذا تعاطاها تعطلت قواه العقلية وخربت، كما أنه يصبح مدمنًا لها لدرجة أنه لا يقدر على تركها، ومن أجل ذلك قد حرّمها الإسلام. من الممكن أن واحدًا بالمئة من الناس إذا شرب الخمر لا يصاب بإدمانها، ولكن تسعين بالمئة منهم يصابون بإدمانها يقينًا؛ وليس من العقل التضحية بالتسعين من أجل الواحد. فما دام التسعون

بالمئة يصابون بإدمان الخمر فكان لزامًا أن يضحَّى بالواحد من أجل التسعين، وليس أن يضحّى بالتسعين من أجل الواحد. فمتى يقدر المقنّن في أي عصر على أن يثبت أن فلانًا أقوى من الآخر، وأقدر على تحمل تأثير الخمر من غيره؟ كلا، من المحال أن يتم هذا التحقيق عن كل شخص، كما أنه لن يكون تحقيقًا مؤكدًا؛ ولذا فقد سن الإسلام قانونًا بتحريم شرب الخمر إذ إن النتيجة أكدت بإدمان ٩٩ % من شاربيها، بحيث إنهم لا يقدرون على تركها. إذًا فإن الطريق الذي اتبعه الإسلام بشأن قضية الخمر هو الطريق الصائب وليس ما ابتدعته أوروبا.

ثم هناك قضية كثرة الزوجات التي تناولها القرآن الكريم بالبيان، ولكن المسلمين قد أخذوا يقولون اليوم خوفًا من الكُتّاب المسيحيين والأوروبيين أن هذا التعليم كان خاصًا بالعرب وبذلك العصر؛ إذ كان من عادة العرب الزواج من أكثر من امرأة، فأقرّ النبي ﷺ هذه العادة تأليفًا لقلوب العرب. فذات مرة ذهبت إلى شِملة* فأقام سكرتيري السيد درد – رحمه الله – مأدبة دعا إليها بعض كبار المسؤولين الحكوميين بهدف مقابلتي. فبينما أنا جالس في مكان المأدبة دخل أحد الرؤساء المسلمين الكبار – وكان قد نال من الحكومة لقب "السير" (SIR) – مع السيد مترا الهندوسي الذي كان من المحامين الكبار، وكانا يتحدثان فيما بينهما. فلما دخلا القاعة تناهى إلى سمعي صوت يقول: لم يكن محمد ﷺ على علم أن الهندوس سيثورون غضبًا على ذبح البقر، ولو علم ذلك لحرّمها في القرآن الكريم. فكان من الطبيعي أن أعرف الحديث الذي يدور بينهما. فلما استقرا على مقاعدهما قلت للسيد مترا الهندوسي: لقد سمعت كلمة كهذه، فهل يمكنك أن تخبرني عن الحديث الذي كان يدور بينكما؟ قال: إن صديقي هذا إنسان رائع، فقد أخبرني اليوم أمرًا زادني تعظيمًا للإسلام واعترافًا بصدقه. لقد أخبرني أن الإسلام يراعي مشاعر الأمم الأخرى لدرجة أنه قد حرم الخنـــزير احترامًا لمشاعر اليهود فقط، إذ كانوا

* مصيف شهير في الهند. *(المترجم)*

يكرهون الخنـــزير فحرمه محمد ﷺ مراعاةً لمشاعرهم. ولو أنه ﷺ علم أن الهندوس يقدّسون البقرة جدًّا لمنع المسلمين في القرآن من أكل لحمها أيضًا، لأن الإسلام دينُ رفق ولطف ويرعى مشاعر الآخرين. وكنت لا أعرف من قبل أن الإسلام يحترم مشاعر الأمم الأخرى لهذه الدرجة، وإنما عرفت ذلك اليوم لأول مرة من صديقي هذا، مما رسخ في قلبي عظمة الإسلام إلى حد كبير. فقلت لـــه: إنني متأسف جدًّا لأنني سأنقص من هذه العظمة التي قد رسخت في قلبك تجاه الإسلام. أرجوك أن تسأل صديقك هذا ما إذا كان القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ أم أنه نـــزل من عند الله تعالى. لا شك أن محمدًا رسول الله ﷺ لم يكن على علم بأن الهندوس يعظمون البقر جدًّا، ولكن هل كان الله تعالى أيضًا جاهلاً بهذا الأمر؟ فقال لي ذلك الرئيس المسلم في فزع: إنني آسف، لقد أخطأتُ.

من الممكن أن يكون كلامي هذا قد قلل من عظمة الإسلام في قلب السيد مترا الهندوسي، ولكن الأخطر من ذلك أن يظن أن القرآن الكريم كان من تأليف محمد ﷺ وأنه كان يضيف إليه من عنده ما يخطر بباله من أفكار.

الواقع أن جميع أحكام الإسلام ليست إلا لمنفعتنا. ومن الخطأ الفادح الظنُّ بأن محمدًا لما كان يجهل أحداث المستقبل أو لما كانت بعض العادات شائعة بين العرب، فلذلك قد ذكرها القرآن الكريم أيضًا. خذوا على سبيل المثال قضية تعدد الزوجات، فنحن نسلّم بأنه من الصعب أن يعمل كل الناس بهذا الحكم، إذ يمكن أن يكون عدد الرجال أكثر من عدد النساء في بلاد ما، والنساء أكثر من الرجال في بلاد أخرى، بينما في بعض مناطق أخرى إن عدد الجنسين متساو؛ ولو كان عدد النساء يزيد على عدد الرجال في بعض البلدان بنسبة ٢ بالمئة، فقليل هم الذين يمكن أن يتزوجوا بأكثر من امرأة. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: هل تعدد الزوجات أمرٌ أم رخصة؟ إن القرآن الكريم لا يعتبره أمرًا، بل رخصة؛ وما دام رخصةً فلن يعمل به إلا الذين هم قادرون على الانتفاع منه. وقد بينت من قبل أن نسبة هؤلاء لا تتجاوز واحدًا أو اثنين بالمئة. بيد أنه من الممكن أن تؤدي تقلبات الزمن إلى ظروف يصبح فيها الزواج بأكثر من امرأة ضروريًا من أجل الرقي

القومي. في مطلع عام ١٩٤٧م لما نشبت الفتن الطائفية في ولاية "بِهار" الهندية وقُتل المسلمون بلا هوادة، وتشرّد الكثيرون هنا وهناك، بعضهم إلى مدينة "مَدْراس" وبعضهم إلى "بومباي" وبعضهم إلى "كالكوتا". ولما كانت قاديان مركزنا فجاء إليها بعض أفراد جماعتنا أيضًا. وذات مرة جاء أحدهم للقائي وقال لي: لقد جئتُ من منطقة "بِهار"، وحضرتك تعلمون جيدًا ما حل بالمسلمين هناك من دمار، وكيف فر مئات الآلاف منهم من الديار. لقد جئتُك لأخبرك أنني متألم جدًّا من هذا الوضع، وأود أن أسألك: ماذا على المسلمين أن يفعلوا حتى يتمكنوا من الرقي والازدهار في الهند ثانية. فقلت لـــه: إن الحل موجود ولكنكم لن تعملوا به. قال: ما لنا أن لا نعمل به وقد نـــزل بنا هذا الدمار الرهيب؟ إذا لم نتخذ أي تدبير لبقائنا اليوم فمتى؟ قلت: كان الإسلام قد دعانا إلى تعدد الزوجات من أجل حل هذه الأزمات، ولكن المسلمين أخذوا يقولون: إنه كان حكمًا مؤقتًا لسد الحاجات العابرة، إذ كان العرب شعبًا جاهلا همجيًا صعب الانقياد؛ وكان تعدد الزوجات شائعًا بينهم، فأقرّه الإسلام جبرًا لخاطرهم، وإلا فلم يُرد الإسلام أبدًا للرجال أن يتزوجوا بأكثر من امرأة. إنما يأمر الإسلام بزواج واحد فقط، والتعليم الذي أعطاه الإسلام نظرًا إلى ظروف العرب الخاصة يجب أن لا يعمَّم على كل العصور.

فقلت لهذا السائل: إن الوبال الذي قد حل بالمسلمين اليوم إنما هو نتيجة هتكهم لحرمة أحكام الإسلام. دَعْ أحكام القرآن الأخرى جانبًا، فلو أن المسلمين عملوا باثنين من أحكامه فقط، لكانت الهند كلها مليئة بالمسلمين اليوم. وهذان الحُكمان هما: التبليغ وتعدد الزوجات. فلو أن المسلمين كلهم اشتغلوا بتبليغ دعوة الإسلام لجعلوا نصف سكان الهند مسلمين، ولو عملوا بتعليم تعدّد الزوجات لصار النصف الباقي أيضًا مسلمين، ولم نر في الهند أي هندوسي. ولكنهم لم يعملوا كما أمروا، بل قالوا إن محمدًا ﷺ قد أمر بهذا عرضًا؛ فيذوقون اليوم وبال عصيانهم.

ثم قلت لهذا السائل: ولو أن المسلمين بدأوا العمل بهذا التعليم اليوم فإنني أضمن لهم كذلك بأنه لن يُرى في الهند هندوسي واحد بعد خمسين سنة. إذ من البديهي

أنه لو استعد كل واحد من المسلمين للزواج بأربع نسوة فلن يجدوا النساء من العائلات العريقة، فلا بد عندها أن يتوجهوا للزواج من نساء القبائل الهندوسية غير العريقة مثل "غوند" و"بهيل" و"غومل" وما إلى ذلك، وهكذا ستدخل هذه القبائل والعائلات كلها في الإسلام خلال بضع سنين. ثم إنه لو وُلد للهندوسي ولدٌ واحد فيولد عند المسلم أربعة. ثم إن الهندوس أقلّ نسبيًّا في مجال التناسل، لذا فإذا ولد عند الهندوسي ولدان، سيولد عند المسلم ستة عشر ولدًا، وتكون النتيجة أنه لن يكون في الهند إلا المسلمون وهم الذين سيشكلون القوة الحاسمة فيها.

عندها قال لي هذا السائل: من أين يأكل هؤلاء الأولاد؟ قلت: هذه هي الحكمة الكامنة في هذا الحكم و لم تستطع استيعابها. ألا وهي أن قومًا إذا أصيبوا بالجوع صاروا مستعدين للقتال. سيأتي على هؤلاء الأولاد زمان لا يجدون فيه الخبز لطعامهم، ولا اللباس لأجسامهم، ولا الدواء لعلاجهم، ولا السكن لمبيتهم، فتتولد فيهم الثورة ويقولون: لن نصبر على هذا الوضع أكثر من ذلك؛ فالآن إما أن نموت نحن أو يموت عدونا. وعندها يهبّون ويسيطرون على البلاد كلها. يظن الناس أن الجوع عذاب، والحق أنه نعمة عظيمة من عند الله تعالى، والأمةُ التي تصبح جائعة يستحيل أن تظل مستعبَدة لمدة طويلة، بل تصبح باسلة كالأسد؛ وحينما يكون كل فرد فيها مستعدًا للموت فلن يقف في وجهها أي قوم. ذلك لأنهم يكونون أكثر عددًا من العدو بنسبة ثمانية إزاء واحد، ثم إنهم يكونون كالأسود الجائعة، فيقاتلون مستميتين ويستولون على البلاد. وهذا هو السبب أن الشعوب غير العريقة في الهند قد أصبحت أكثر قوة في هذه الأيام، بينما أصبح المسلمون أذلاء مهانين. ذلك لأن الهندوس يرون أنهم مهما ظلموا المسلمين فإنهم لن يلجأوا إلى الثورة خوفًا على أموالهم، أما الشعوب الأخرى الفقيرة الحقيرة فلا يظلمونها خوفًا أن تثور بسبب فقرها.

فقلت للسائل إن ما تراه عيبًا فليس في الحقيقة بشيء معيب، بل هو نعمة عظيمة، وهذا هو الحل الذي جعله الله تعالى لمشاكلكم. وقلت لـــه مرة أخرى: لقد أخبرتك بالحل ولكنني على علم أنكم لن تعملوا بهذا الحل.

بعد انقضاء ستة أشهر على هذا الحادث جاءتني رسالة من جزر أنديمان من أحد المعلمين أو الأساتذة، فلامني في رسالته كثيرًا وقال إنكم لا تفعلون شيئًا، ولو أن المسلمين عملوا بحكم تعدد الزوجات على الأقل لما كانوا في هذا الوضع المزري. فقلت لـــه في الجواب: لا تَلُمْني أنا فقد كنت دعوتهم إلى ذلك، بل عليك أن تلوم قومك الذين لا يعملون بهذا الحل.

فترى كم هي هامةٌ قضيةُ تعدد الزوجات التي قدمها الإسلام، ولكن المسلمين قد أهملوها، وليس ذلك إلا خوفًا من الهندوس والنصارى وأتباع الديانات الأخرى، بينما يعلن القرآن الكريم مرارًا وتكرارًا أن اليهود والنصارى أعداء لكم، فلا تقبلوا أقوالهم. إذ كيف يمكن أن تجتمع أمتان تتبعان قانونين مختلفين أحدهما صلبٌ والآخر مجرد هزل. عندما يرى المسيحي حالة قومه سيقول من فوره: يجب أن تسنّوا لهم قانونًا كهذا، فسيقول المسلم: الإنسان لا يسن القوانين من عنده، بل إن الله تعالى هو الذي يسنها وقد سبق أن سنّها، ولا خيار لنا بعد ذلك أن نسن قانونًا إزاءها. فيقول المسيحي: إنك مجنون، ولا تنظر إلى الظروف المستجدّة مصرًّا على القوانين القديمة البالية. وهكذا سيختلف المسلم والمسيحي عند كل خطوة. فنحن نرى أن إهمال القانون الإلهي غباء، بينما يرى هؤلاء أن العمل بذلك القانون حماقة. إننا نؤمن بأن القانون الإلهي قد سبق أن نـــزل قبل ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، ولن ينـــزل بعد ذلك أي قانون آخر إلى يوم القيامة، بينما يرى هؤلاء أن هناك حاجة إلى قانون جديد الآن، ويتطلعون إلى نظريات جديدة وفلسفات حديثة. وعندما يرون هذا البون الشائع بيننا وبينهم يصبحون أعداء لموقفنا، وعداؤهم ينكشف عند كل خطوة. فلما ذهبت إلى إنجلترا في عام ١٩٢٤م اشتركت في اجتماع، وقد اشترك فيه أيضًا السير توماس أرنولد، الذي كان أستاذًا في جامعة "عليغره"، وكان في أيام رحلتي إلى إنجلترا حاكمًا على أفريقيا الشرقية، وكان قد جاء من هناك. فأرادت مجموعة من النساء أن يصافحنني، فاعتذرت وقلت: لا يجوز للرجال مصافحة النساء في الإسلام. وكان من الطبيعيّ أن يستاء السير توماس من تصرفي هذا، فأخذ يقول للناس إنه عالم خبير ومصنف كبير في القضايا الإسلامية؛ وأن

الإسلام لا ينهى الرجال عن مصافحة النساء أبدًا. فجاءني مجموعة من الطلاب وأخبروني أن الأستاذ أرنولد يقول كذا وكذا، فهل يجيز الإسلام للرجال مصافحة النساء؟ فبينتُ لهم تعليم الإسلام بالتفصيل بأنه ينهى عن مصافحتهن. فأبدى السيد أرنولد تجاهي حقدًا شديدًا، فكان لا يشترك في أي اجتماع أنا فيه. فمرة جاء في اجتماع ولكنه ظل بعيدًا عني. فقلت لسكرتيري إنه لا يأتي إلى الأمام لأنه لا يريد مقابلتي. قال: كيف يمكن ذلك، سأدعوه حالاً. قلت: سترى أنه لن يواجهني. وهذا ما حدث فعلاً، حيث ناداه وقال لـــه: تعال هنا. فتقدم إليه ولكنه بمجرد أن رآني تسلل من طريق آخر.

إذًا، فهم يبغضون تعاليم الإسلام بغضًا لا حدود لـــه. يريدون سن القوانين بأنفسهم، ويعرقلون طريقنا، زاعمين أن الإسلام هكذا يقول. فمن المحال إذًا، أن تكون بين المسلمين واليهود والنصارى مودة قلبية. نعم، إذا ترك المسلم دينه وكفر بمحمد رسول الله ﷺ وقال إن الله تعالى قد أخطأ – والعياذ بالله – إذ لم يسن القوانين نظرًا إلى حاجات العصور المختلفة، عندها يمكن أن تكون المودة بينه وبين أوروبا. أما إذا ظل المسلم مؤمنًا بالله وبأن محمدًا رسول الله ﷺ وبأن القرآن الكريم كتاب الله تعالى فلن تكون بينه وبين أوروبا أي مودة قلبية. ذات مرة قابلت أحد المسلمين وكان في رفقة زملائه وكان مسؤولاً كبيرًا في الخطوط الجوية، فاعترض على الإسلام خلال الحديث، فرددت عليه. ولم يزل يعترض وأنا أرد عليه، وكنت على علم أنني سأستدرجه إلى أن يصطدم مع الله تعالى. وبالفعل ألقيته في الورطة في نهاية المطاف، فقلت لـــه: أَخبِرْني الآن أأنت أعلَمُ أم الله تعالى؟ وكان هذا في عزّ شبابه، ومن المسلمين المثقفين بالثقافة الحديثة الذين يكونون قليلي الأدب تجاه ذات البارئ تعالى، فسكت مليًّا، ثم قال: أظن أنني أعلم من الله. فضحك زملاؤه كلهم بأن غباءه ألقاه في الورطة فصار الآن عديم الحياء حتى قال أنه أعلَمُ من الله تعالى. فالحق أن المسلم ما دام مؤمنًا بأن القرآن الكريم كتاب الله تعالى، وأن الله تعالى أعلم منه، فلا بد أن يجد المواجهة من قبل أوروبا، ولكن هذه المواجهة ستسفر في نهاية المطاف عن هزيمة أوروبا وغلبة رب الإسلام.

خذوا مثلاً قضية شرب الخمر، فكم كان هؤلاء يعترضون على الإسلام أنه يجهل أهمية علو الهمة في الإنسان، وأنه يجهل ما في الفطرة الإنسانية من أحاسيس مرهفة. يقولون: يظن الإسلام أن الخمر إنما يتعاطاها المرء ليصبح سكرانًا فيهذي. إن الآسيويين هم الذين كانوا يشربون الخمر بهذا الأسلوب، أما نحن الغربيين فلسنا همجيين مثلهم، إنما نشرب كأسًا أو كأسين، فلا نصاب بالسكر ولا الهذيان. ولكن ما الذي حدث؟ إن أمريكا نفسها التي كانت تعترض على الإسلام بشأن الخمر اضطرّت لسنّ قانون يفرض الحظر التام على تعاطي الخمر. فإذا كان شرب كأس أو كأسين من الخمر يشحذ عقل شاربها فلمَ حاولت أمريكا، التي كانت أكثر بلدان العالم شربًا للخمر، أن تفرض الحظر التام على شربها؟ ثم لماذا ألغت هذا الحظر بعد أن فرضته. هذا أيضًا دليل آخر على أن القوانين الإسلامية أفضل من غيرها. لقد اضطرت أمريكا إلى فرض الحظر على شرب الخمر، ثم أحلت هذا الذي حرمته؛ وإن هزيمتها هذه تدل دلالة واضحة على أن ما يقوله القرآن الكريم مدعوم بالقدرة الإلهية، ولكن ما يقوله الغرب ليس بمدعوم بقدرة الله تعالى. لقد قال الإسلام إن الخمر حرام، وقالت أمريكا أيضًا أن الخمر حرام، ولكن ما حرمه الإسلام لا يزال حرامًا حتى اليوم، بينما أمريكا اضطرت لأن تحلّ ما حرمته قبل خمسة عشر عامًا. إن هذا التفاوت بين الطرفين يكشف لنا مدى القوة والعظمة التي كان النبي ﷺ يتمتع بها. كان العرب مغرمين بشرب الخمر لدرجة أنهم كانوا يتفاخرون بشربها وقت الصبح على وجه الخصوص إضافة إلى الأوقات الأخرى (بلوغ الإرب الجزء الأول ص ٣٩٤: تقديم العرب الأيمن في الشرب). ومن أجل ذلك قد جعل الإسلام للمؤمنين صلاة التهجد في ذلك الوقت. وعلاوة على هذا الموعد، فإن أثرياء العرب كانوا يتعاطون الخمر خمس مرات من الصباح إلى وقت النوم، ففرض الإسلام على المؤمنين خمس صلوات إزاء تلك المواعيد. لا شك أن هناك حِكمًا كثيرة في الصلوات الخمس إلا أن إحدى هذه الحِكم أن العرب كانوا يشربون الخمر في هذه المواعيد نفسها. فذات مرة كان النبي ﷺ جالسًا في مجلسه، فقال لأصحابه إن الله تعالى قد أخبرني اليوم أن شرب الخمر حرام. وكان الناس

حينئذ حاضرين في مأدبة في بيت في المدينة، وكانوا قد أحضروا جرارًا من الخمر العالية الجودة. وكانت جرة من الخمر قد نفدت، وكانوا على وشك أن يشربوا ثانية، حتى نادى مناد في الشارع قائلا: أيها الناس، اسمعوا وعوا. إن محمدًا رسول الله ﷺ قد حرم الخمر اليوم بأمر الله تعالى. وبإمكاننا أن ندرك بكل سهولة مدى السكر والنشوة والهذيان الذي يكون قد أصاب هؤلاء القوم الذين كانوا قد شربوا جرة من الخمر. ولكن عظمة النبي ﷺ مستولية على قلوبهم لدرجة أنه بمجرد أن وصل هذا النداء إلى آذانهم حتى أصيبوا بالدهشة، فقال أحدهم لصاحبه: أسمع في الخارج صوتًا يقول إن محمدًا رسول الله قد حرم الخمر، فافتح الباب واسأله ما حقيقة هذا الإعلان. فقال لـــه صاحبه: ما دام أمر من أوامر النبي ﷺ قد وصل إلى أسماعنا، فلماذا تطلب مني فتح الباب والسؤال عن خلْفية الخبر؟ بل سأكسر جرار الخمر أولاً ثم أسأل عن الخلْفية. (البخاري: كتاب الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق)

وعلى النقيض نجد أن أمريكا تَصِمُ العربَ بالهمجية، حتى يقول بعض المسلمين الأغبياء خوفًا منها أن العرب كانوا بالفعل شعبًا همجيًّا غير مهذب، وكانوا لا ينقادون لأحد بسهولة، و لم يأمر محمد رسول الله ﷺ بتعدد الزوجات وما إلى ذلك إلا جبرًا لخاطرهم فحسب. ولكن ما حصل في أمريكا كان على عكس ما حصل مع محمد ﷺ، حيث تقرر الأكثرية في أمريكا بما فيها العلماء والأطباء أن الخمر شيء ضار، كما تعلن الحكومة بأن الخمر ضار، ثم تسنّ قانونًا يحظر شرب الخمر؛ فما الذي حصل يا ترى؟ إن ما حصل هو أن الذين ادعوا بكونهم مثقفين ومتحضرين، واتهموا العرب بالجهل والتخلف معترضين على التعليم الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ، أصبحوا أنفسهم جاهلين لدرجة أنهم لم يمتنعوا بعد هذا القانون عن شرب الخمر، بل ثاروا وأخذوا يشربون الخمور الرديئة جدًّا، حتى شربوا الكحول المُمَيثَل (Methylated Spirit)، فأصيب الكثير منهم بالعمى. والكحول المُمَيثَل هو نوع من الخمر يمزج فيه الميثيلين لكيلا يشربه الناس، ويُستخدم للإضاءة والتسخين فقط. هذا هو حال هؤلاء العقلاء الذين يدّعون في هذا العصر أنهم

مثقفون ومتحضرون. أما العرب الذين يرمونهم بالجهل والتخلف – حاشا لله – فما أن سمعوا عن حرمة الخمر حتى قال أحدهم لصاحبه حتى في حالة السكر: لماذا تسألني أن أفتح الباب وأتحرى الأمر؟ هل جرار الخمر أغلى ثمنًا من محمد رسول الله ﷺ؟ فما دام الصوت قد وصل إلى آذاننا فسأكسر أولاً جرار الخمر ثم أتحرى الأمر. ولو تبين بعد ذلك كذب الخبر فنجلب خمرًا أخرى، أما إذا كان الخبر صحيحًا فسنمشي مرفوعي الرأس بأننا قد عملنا بأمر محمد رسول الله ﷺ بمجرد أن سمعناه.

ثم هناك قضية الميسر، وقد ضحك الغرب على نهي الإسلام عن لعب الميسر أيضًا، وكان الإنجليز شعبًا مقامرًا كلهم. أما اليوم فليدلّونا على بلد لا يسنّون فيه القوانين ضد الميسر. لا شك أنهم لم يستطيعوا بعد الامتناع علنًا عن لعب الميسر، ولكن أليس من الأدلة الساطعة على فضل الإسلام أن الغرب بدأ يقترب من الأمر الذي قد دعا إليه الإسلام قبل ثلاثة عشر قرنًا حيث أخذوا يضعون القيود والشروط على لعب الميسر شيئًا فشيئًا، ولكنهم يشعرون بالخجل في فرض الحظر التام المعلَن على الميسر. وذلك كما قال الشاعر "ذوق":

بعد مدت کے گلے ملتے ہوئے آتی ہے شرم
اب مناسب ہے یہی کچھ تم بڑھو کچھ میں بڑھوں

أي كلانا نشعر بالخجل في أن نعانق بعد انقطاع طويل، فالأفضل الآن أن تتقدم أنت قليلاً وأتقدم أنا قليلاً.

إنهم لا يفرضون الحظر التام دفعة واحدة خوفًا من أن يقول الناس بأنهم اضطروا في النهاية للعودة إلى ما يقوله الإسلام. ومن أجل ذلك يضعون على الميسر شتى القيود والشروط، فيقولون إن كذا وكذا من أنواع الميسر محظور، وانه لا يجوز لعب الميسر إلا بوساطة مؤسسة كذا وكذا، ويجب أن يكون مسجلاً. وكأنهم رضوا في الأخير بما قاله الإسلام، ولكنهم لا يجدون من الشجاعة ما يجعلهم يحظرون الميسر علنًا.

ثم هناك عقوبة الإعدام. لما فرض القرآن الكريم عقوبة الإعدام على بعض الجرائم قال هؤلاء إن قتل النفس ظلم عظيم، وإن مسيحنا قد علّمنا أنه إذا لطمك

أحد على خدّك الأيمن فأَدِرْ لـــه الأيسر أيضًا (متى ٥: ٣٩)، وقامت بعض الدول الأوروبية بإلغاء عقوبة الإعدام؛ ولكن بعد مرور حوالي ٣٠ عامًا عادوا فسنّوا القوانين بفرض عقوبة الإعدام، لأن الأمن بدونها محال.

إذا، فهناك قضايا عديدة قدمها الإسلام، وضحك عليها الغرب واستهزأ، ولكن بعد اصطدامهم بالإسلام اضطروا في النهاية للاعتراف بأن الطريق الذي يريد الإسلام هداية الدنيا إليه هو الطريق الصحيح. وهذا دليل بيّن على أن الكتاب الذي عرضه النبي الأُمّي على العالم قبل ثلاثة عشر قرنًا إنما هو قانون ذلك الإله الذي هو خالق الفطرة الإنسانية. إنه تعالى كان يعلم كيف تعمل هذه الماكينة البشرية وما هي الأمور اللازمة لصيانتها وإصلاحها. ولكن المشكلة أن إيمان المسلمين ليس بإيمان كامل. إنهم يندفعون في حيرة وتعجب وراء كل ما يقدمه الغرب من نظريات، وعندما يرون فشل الغرب بسببها يقولون في أنفسهم إن التعليم الحقيقي هو ما قدمه القرآن الكريم. وفي أثناء ذلك يأتي الغرب بنظرية أخرى، فيندفع المسلمون وراءها أيضًا. ومثلهم كمثل طفل معتوه ورد ذكره في القصص العربية. يقال أن طفلاً أحمق كان يتعرض للمضايقة على يد زملائه دومًا. وكلما ضاق منهم ذرعًا حاول التخلص منهم بقوله: ألا تعلمون أن فلانًا من الأثرياء قد أقام وليمة كبيرة. لقد نحر العديد من الإبل والخرفان ويطعم آلاف الناس، وقد ذهب آباؤكم وإخوانكم كلهم إلى تلك المأدبة، وإن لم تذهبوا فإنهم سيأكلون كل اللحم وتُحرَمون هذا الأكل الشهي. فيغترّ الأطفال بحديثه فيهرعون إلى بيت ذلك الثري ليشتركوا في الوليمة. وبعد ذهابهم قال الطفل الغبي في نفسه: لقد قلتُ لهم ما قلت كذبًا، ولكن قد تكون هناك وليمة فعلاً، فيأكلون منها وسأظل محرومًا منها. فأخذ يجري إلى بيت ذلك الثري، وبينما هو في الطريق وجد زملاءه يعودون وهم ثائرون من الغضب. فأخذوه وأوسعوه ضربًا ولكمًا، وهم يقولون لـــه: لقد خدعتنا خدعة كبيرة. فيقول لهم: لقد خدعتكم لأنكم تضايقونني بالضرب والإهانة، والحق أن الوليمة تقام في مكان كذا. فيتركه الزملاء ويهرعون إلى ذلك المكان. وبعد ذهابهم يقول الطفل الغبي في نفسه: لعل هناك

وليمة بالفعل، فيأكل منها زملائي وسأظل محرومًا. فيجري إلى ذلك المكان، ليجد زملاءه عائدين. فيبطشون به ويضربونه.

لقد كان ذلك الطفل التعيس معتوهًا، ولكن المسلمين يؤمنون بالقرآن الكريم، ومع ذلك قد تردّى حالهم لدرجة أنهم يندفعون لاتباع الغرب في كل قضية، وعندما يرى الغرب فشل نظريته ويأتي بخطة جديدة يجرون وراءها أيضًا، وعندما تفشل خطته الثانية يقدّم خطة ثالثة فيجرون وراءها أيضًا. فالغرب في الأمام والمسلمون وراءه. وبدأوا الآن يجرون وراء ستالين وروسيا ظانين أن العزة كلها والتقدم كله في اتباع روسيا. وإنما يرتكبون هذه الأخطاء والتقصيرات لأنهم لا يؤمنون بالقرآن الكريم على أنه كلام الله الحق، بل يؤمنون به إيمانًا تقليديًّا فقط. والحق أن المسلمين إذا أرادوا التقدم والرقي فلا سبيل لذلك إلا أن يؤمنوا أن البركات كلها في القرآن الكريم وفي طاعة محمد رسول الله ﷺ، وأنهم إذا حادوا عن هذا الطريق قيد شعرة فيلقون خسرانًا مبينًا، كما تُدمَّر أجيالهم أيضًا، ذلك لأن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى غايته المنشودة بدون السير في الصراط المستقيم.

وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

شرح الكلمات:

مُبلِسون: أبلسَ: قَلَّ خيرُه؛ انكسرَ وحزن. أبلسَ من رحمة الله: يَئِسَ. وأبلسَ في أمره: تحيَّرَ. أبلسَ فلانٌ: سكتَ غمًّا (الأقرب).

التفسير: أي أننا نريد أن نرحمهم ونـــزيل مصائبهم كما تقتضي صفاتنا، ولكننا نرى أن ذلك سيزيدهم شرًّا. وادعاؤنا هذا ليس بدون دليل، فقد جاءهم العذاب من قبل مرارًا، ولكنهم لم ينيبوا إلى ربهم و لم يتضرعوا لـــه. بيد أنه حين يأتيهم عذابنا الأخير سيصبحون يائسين قانطين.

لقد بين الله تعالى في هذه الآيات أن الغاية من إنـــزال العذاب على قوم أن يتوجهوا إلى ربهم ويرتدعوا عن مساوئهم. ولكن ما أشدَّ شقاءَهم للأسف! إذ لا يتوجهون إلى إصلاح أحوالهم حتى عند نـــزول العذاب، ولا تستولي خشية الله على قلوبهم، مع أنهم لو توجهوا إليه ولو قليلاً لكشف عنهم العذاب. وما حدث مع قوم يونس عليه السلام خير دليل على ذلك. ورد في التوراة أن يونس عليه السلام لما أنذر قومه أن مدينة نينوى ستُدمَّر خلال أربعين يومًا، آمنَ أهل نينوى بالله ونادوا بصوم، ولبسوا مسوحًا من صغيرهم إلى كبيرهم. وبلغ إنذارُ يونس ملكَ نينوى، فقام من عرشه وخلع حلته الملكية ولبِس المِسْح وجلس على الرماد. ونودي من قبل الملك ونبلائه وقيل: لا تَذُق الناسُ والبهائم والغنم والبقر شيئًا لا تَرْعَ ولا تشرَبْ ماءً، وأن يلبس الناس والبهائم المسوحَ متضرعين إلى الله تعالى تائبين عن طرقهم الشريرة وعما ارتكبوه من ظلم، لعل الرب يرحم ويبدل إرادته ويعود عن غضبه الشديد فلا يُهلِكنا. فلما رأى الله أنهم رجعوا عن طريقهم الشريرة لم ينـــزل عليهم العذاب (انظر سفر يونان ٣: ٤-١٠).

وقد ذكر القرآن الكريم نفسه هذه الواقعة فقال ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾(يونس:٩٩).

وهذا يبين أن العباد إذا ما تابوا ورجعوا إلى الله تعالى بصدق وامتنعوا عن سيئاتهم لا ينـــزل الله تعالى عليهم العذاب وإن كان قد أنبأ وأنذر به من قبل. ذلك لأن الأنباء التحذيرية إنما هدفها الأساس أن تتاح للناس فرصة الإصلاح. فترى أن قوم النبي ﷺ لما تابوا كلهم يوم فتح مكة ودخلوا في طاعته نجاهم الله تعالى من

العقوبة المادية كما منحهم ترقيات روحانية عظيمة، وذلك رغم جرائمهم البشعة التي لو عوقبوا عليها لكان عقابًا صحيحًا من الناحية القانونية.

ولكن الله تعالى يبين هنا أن هؤلاء القوم ليسوا كذلك، حيث قال ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، فتكون النتيجة أنهم يتعرضون للعذاب الشديد الأخير في نهاية المطاف، فلن يجدوا منه مصرفًا ويصبحون قانطين ويائسين حين يرون انقطاع أسبابهم المادية.

وليكن معلومًا هنا أن القرآن الكريم لم يكتف بذكر أن القوم المجرمين يقعون فريسة لعذاب الله تعالى، بل زاد وبين أيضًا الأمور التي يراعيها الله تعالى عند إنـــزال العقاب حتى لا تُعَدّ عقوبته ظلمًا. فإن مطالعة القرآن تكشف لنا ما يلي:

أولاً: أن الله تعالى يفصل بالنظر إلى جميع جوانب القضية، قال الله تعالى ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾(الأعراف:٩). إن الناس إذا ما سمعوا أن فلانًا سرق صدّقوا الخبر فورًا وعدّوه سارقًا دونما فحص وتحقيق. ولكن الله تعالى عندما يعاقب أحدًا على جريمة يضع في الحسبان الظروف التي ارتكب فيها الجريمة، ويرى كم يستوجب عليها من العقاب.

وثانيًا: أنه تعالى لا يعاقب إلا الجاني، وليس أن يعاقب الأبرياء بدل المجرم. قال الله تعالى ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الأنعام:١٦٥).. أي لن تحمل نفسٌ الحِمْلَ مكان نفس أخرى، بمعنى أن الذي هو نفسه مسؤول أمام الله تعالى لن يقدر على مساعدة غيره، فلن ينـــزل العقاب إلا بالمجرم، وليس أن يوضع عبؤه على غيره. وأكد الله تعالى هذا المعنى في آية أخرى فقال ﴿لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾(البقرة:٤٩).. أي من المستحيل أن ينوب شخص عن غيره في تلقّي العقوبة.

وثالثًا: أنه تعالى إنما يعاقب المرء بقدر جريمته لا أكثر. قال تعالى ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(الشورى:٤١).. أي لا يعاقَب المرء على سيّئته إلا بقدرها.

ورابعًا: أن الله تعالى يرى قبل إنـــزال العقوبة ما أتى العبد من حسنات أيضًا، فإذا كانت حسناته أكثر من سيئاته فيعفو الله عنه. قال الله تعالى ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ

مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الأعراف:٩).. أي أن الذين زادت حسناتهم على سيئاتهم فإن الله تعالى سيسترهم برداء عفوه، ويغفر لهم أخطاءهم.

وخامسًا: أن الله تعالى لا يقبل أي شفاعة عند إنـــزال العقوبة، قال الله تعالى ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾(البقرة:٤٩).. أي لا تُقبَل من نفس أي شفاعة.

وسادسًا: أن رحمة الله تعالى تكون غالبة عند إنـــزال العقاب دائمًا، فلا يعاقب أحدًا بحد أقصى من العقاب، بل يعاقبه بما هو أقل من جريمته دومًا. قال الله تعالى ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(الأعراف:١٥٧).. والعقاب أو العذاب أيضًا يندرج في ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾.

لقد تبين من هذا التفصيل مدى التأنّي الرباني بصدد العقاب. فما أكثره شفقةً ورحمةً بعباده، ولكنهم لا ينتفعون من رحمته للأسف الشديد. إنه تعالى يمد يد المحبة، ولكن الإنسان الجاهل يرفض يد رحمته ﷻ، فيقع فريسة للعذاب نتيجة أعماله السيئة.

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَـٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٣﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٤﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن

فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾

شرح الكلمات:

أساطير: سطَر الكاتبُ: كتَب. سطَر الرجُلَ: صرَعه. وسطَره بالسيف: قطعه به. الإسطار والأُسطار والأُسطور والأُسطير: المكتوب، وجمعه أساطير: ما يُسطَر أي يُكتَب؛ وتُستعمل في الحديث لا نظامَ لـــه والحكاياتِ، والجمعُ أساطير (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى هنا: هلا فكرتم ما هو العمل الذي أُعطيتم جزاءً عليه أسماعَكم وأبصاركم وأفئدتكم. لستم الذين خلقتم هذه الأشياء، بل الله تعالى الذي أعطاكم الأسماع والأبصار والأفئدة. هو الذي بدأ خلقكم هنا، وهو الذي سيبدأ خلقكم في الآخرة. وهو الذي بيده حياتكم ومماتكم واختلاف الليل والنهار، إذ لا سلطان للإنسان على النظام الشمسي الذي يتولد منه الليل والنهار.

لقد نبّه الله تعالى هنا بذكر خلق الأسماع والأبصار إلى أن الله الذي وهبكم الآذان والعيون وزودكم بقوة السمع والبصر في حياتكم الدنيا التي هي أيام معدودة، ألا يليق به أن يهيئ الأسباب حتى تسمع آذانكم وعيونكم الروحانية. وكذلك فإنه تعالى قد خلق تلك الأفئدة التي تعتمد عليها حياتكم المادية، فكيف يمكنه أن لا يخلق الأسباب لحياتكم الروحانية ويترككم بدون آذان وعيون وقلوب روحانية؟!

وبالمثل فمنه الموت والحياة، فهو الذي يحيي ويميت. ونفس الحال بالنسبة للعالم الروحاني. إنه تعالى يحيي الأمم الميتة المنهارة بواسطة الأنبياء، أما الأمم التي تحارب أنبياءه فيلقيها في الحضيض بعد أن تكون قد بلغت أوج الرقي والازدهار.

وهذا الدرس نفسه نجده في اختلاف الليل والنهار، وبتعبير آخر هناك في الاختلاف الموجود بين ظلمة الليل وضياء النهار آيات عظيمة للمتفكرين. فكثير

من الأمراض تشتد وطأتها في الظلام، وكثير من الحوادث تقع بسبب ظلمة الليل؛ فمعظم حالات السرقة والسطو التي تقع في العالم إنما تقع تحت ظلمة الليل، كما أن الثعابين والعقارب وغيرها من حشرات الأرض تنتشر بالليل. ثم إن الظلام بلاء عظيم، إذ لا يقدر فيه المرء على التمييز بين الجميل وغير الجميل، ويستوي له فيه الأسود والأبيض والأحمر والأصفر. ولكن إذا طلع النهار اتضح جمال الجميل ودمامة الدميم، وتدخل حشرات الأرض في جحورها، ويخاف السارق من السرقة، ويحترز قاطعُ الطرق من السطو. ثم هناك العديد من الأمراض التي تزول بأشعة الشمس تلقائيًّا، كما تقضي حرارتها على جراثيم شتى الأمراض.

إذًا فإن اختلاف الليل والنهار أيضًا ينبه الإنسان العاقل إلى أنه كما تأتي على العالم المادي فترة من الظلمة لتليها فترة من الضياء، كذلك يختفي في العالم الروحاني النور الإلهي عن أعين الناس في بعض الأحيان وتفشو أنواع السيئات بين الناس، ولكن حين ينشر الله تعالى نور الهدى على يد أحد مأموريه تنقشع جميع البلايا والآفات المتعلقة بالليل وينال الجنس البشري حياة جديدة.

إذًا فكما يوجد هناك في العالم الطبيعي اختلاف الليل والنهار كذلك يجب أن يدرك الناس أنه لا بد من أن تأتي في العالم الروحاني ساعات من الليل وساعات من النهار. ولكن المعارضين لا يبرحون يصرون على قولهم: هل نحيا ثانية بعد أن متنا وكنا ترابًا؟ بمعنى أن الكافرين يقولون لدى عجزهم أمام الأدلة: ليس لهذه الحياة من غاية، فما الجدوى من هذا النـــزاع والخصام؟ إنها أساطير الأولين التي لا نـــزال نسمعها من زمان بعيد، ولكن القيامة لا تأتي! هذا يدل على أن الكون موجود منذ عصور سحيقة، وأن الناس ما برحوا يظنون دائمًا بقرب القيامة. وبالفعل ما زال خصوم الأنبياء يثيرون نفس الاعتراض قائلين: لقد سمعنا على مر العصور ضجة عن قرب القيامة، وقد مضت قرون على قرون ولكن لم تقم القيامة بعد! وهذا يدل على خطأ هذه الفكرة.

والحق أن هذا وهمٌ من الكافرين، لأن القيامة ليست اسمًا ليوم معين، كما أنها لن تقوم في هذه الدنيا، بل المراد منها الحياة التي تكون بعد الموت والتي تجزى فيها

كافة الأرواح جزاءً جماعيًّا. ومثل تلك القيامة لا تُشاهَد في هذه الدنيا ولن تُشاهَد أبدًا. فتساؤلهم عن عدم قيام القيامة إلى الآن ليشكّل دليلاً على جهلهم وغبائهم. بيد أنه من الممكن أن يشمل الله تعالى هذا الكون بالفناء التام، ثم يعيد خلقه من جديد. ولكن هذا لا يسمى قيامةً في الكتب السماوية. إنما القيامة ما ذكرناه أعلاه، وقد جاء ذكره في قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكْرَامِ﴾(الرحمن:٢٧و٢٨).

على كل حال، فإن الله تعالى يرد هنا على اعتراض الخصوم فيسألهم: أليس موت كل من يعيش في الدنيا وحياته في قبضة الله تعالى؟ فهو الذي يخلق في صلب الأب النطفة التي يُخلق منها الطفل، وهو الذي يهيئ في رحم الأم أسباب نماء الجنين، وهو الذي يهيئ لـــه الغذاء بعد ولادته. أفليس الله الذي خلق هذه الأشياء كلها بقادر على أن يعيد خلق الإنسان من جزء صغير من جسده؟ ورد في الحديث أن الإنسان سيُخلَق بعد الموت ثانية من "عَجْبِ الذَّنَب" (البخاري: التفسير، سورة عمَّ يتساءلون).. و"عجب الذنب" هو العظم الذي يكون في مؤخرة الإنسان، والذي يزعم العلماء أنه بقية ذَنَب القرد. (The descent of man p. 89 – 90)

فإذا كان خلق الإنسان من ذرة الحياة التي لا ترى إلا بالمجهر فكيف يستحيل خلقه من جزء من "عجب الذنب" يستبقيه الله تعالى؟ ألا توجد هناك ديدان تُخلق في باطن الأرض وفي الصخور؟ إذا أمكن خلق الإنسان في رحم أمه فكيف يستحيل خلقه في مكان آخر؟ إن هذا الظن ليس إلا نتيجة قياسهم قدرة الله تعالى على قدرة الإنسان، وإلا فإن الله الذي استطاع أن يخلق الإنسان في المرة الأولى فلا يمكن أن تُستبعد قدرته على خلقه ثانية.

أما قول الله تعالى ﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فقد نبّه به الكفارَ إلى أن أساس الدين ليس على العالم الأخروي فقط الذي يتحدثون عنه. ألا يضطرّون للمعاملة مع الله تعالى في هذه الدنيا؟ فلمَ صاروا بعيدين وغافلين عن أحكام الله تعالى إلى هذا الحد؟